



نور / محمد بن عبد الله السلومي

(1) استهداف المنهج أم استهداف الإسلام ذاته؟!

التعاون بين الليبراليين من جهة والشيعة الرافضة من جهة أخرى في العالم العربي قضية مطروحة للنقاش، لاسيما حول الأهداف المشتركة بينهما. وهذا ما يستوجب البحث والدراسات الكثيرة عن حقيقة التعاون، وعن مآلات خطابهما وأثره على الوحدة الفكرية والسياسية للشعوب والدول الإسلامية.

وقد كُتبت عن هذا التعاون مقالاتٌ منشورة وكثيرة، ومن ذلك مقالات بعنوان: «اللبيروصفوية والوطنية السعودية 7/7»، وفيها بعض الأدلة والقرائن التي تؤكد أن ليبراليي مثقفي الشيعة في دول الخليج هم الجسر العملي لتمرير الأفكار الصحفية من قُم وطهران إلى إخوانهم الآخرين ليبراليي «أهل السنة» - إن صحَّ التعبير - ! لاستهداف المنهج السلفي، وذلك بحسب المراجعات والمكافحة من دعاة الليبرالية أنفسهم.

فهل «اللبيروصفوية» بهذا الواقع تتقاطع مصالحها تجاه تحقيق هدف مشترك هو تشويه المنهج السلفي؟ وهل مآلات خطابهم الثنائي المشترك تمثل معول هدم للوحدة الفكرية، ومن ثم صناعة التصدع في الوحدة الفكرية تحت مسمى التعدية الفكرية، وما سيترتب على ذلك من تعدية سياسية تهدد الوحدة الفكرية والسياسية على حد سواء؟

قد يكون من ذكاء هذا الخطاب الثنائي في تحقيق أهدافه المزدوجة - كما يتصورون - استهدافه المنهج السلفي وخطابه بالانتقاد والإذراء لأتباعه وأنصاره تارة، والهجوم على مؤسساتهم الدينية واتهام الرموز أو المؤسسات بأنشئ التهم المُنفِّرة للأجيال من هويتهم الفكرية الحقيقية تارة أخرى! ومحاولات إسقاط رموز المنهج السلفي التجديدية والإصلاحية عبر التاريخ محور أساس في خطابهم، وكذلك فإن محاولات إقصاء المجتمع الإسلامي عن بعض شعائر الإسلام ومرجعيته الحقيقة واضحة في خطابهم المزدوج!

وكل ذلك للتمويه على المقصود من وراء خطابهم «اللبيروصفوي»، وهو نقد الإسلام ومنهجه الصحيح، لكن الاستهداف الشامل لكل مدارس المنهج السلفي ورموزه ومؤسساته يكشف حقيقة المُستَهدَف المقصود، فالسلفية أو الحنبلية أو مدرسة ابن تيمية أو الوهابية - كما يصفونها - كلها في الحقيقة لا تدعو أن تكون المُعَبِّر عن المنهج الإسلامي الصحيح في الاستدلال للفهم الصحيح للنصوص وتفسيرها، كما هو المعروف عن هذا المنهج.

فالسلفية - مثلاً - منهج وليس عقيدة أو أيديولوجيا مستحدثة - كما هو معلوم -، بل إن هذا المنهج في الاستدلال والتفسير والفهم لحقيقة الإسلام ليس حكراً على ابن حنبل أو ابن تيمية أو دعوة محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية - رحم الله الجميع -، فمعظم الدعوات الإصلاحية لنهاية الأمة الإسلامية عبر تاريخها الإسلامي تشاركت في هذا الفهم، كما تتفق على هذا المنهج الصحيح في فهم القرآن والسنة، حتى لو لم تسمى بالسلفية أو منها.

و«الليبروصوفية» بطرحها المتكرر في التشويه والانتقاد لهذا المنهج ومن ورائها الغرب المتعصب دينياً وسياسياً يُعدون للاحتجالية بهزيمة أهل السنة والجماعة ليتبرأ بعضهم أو بعض دعائهم ومتقفيهم من مصطلح المنهج السلفي، أو يخلوا من الانتماء إليه، ظناً منهم أنه يعني جماعة أو فئة محددة أو دعوة معينة، ومن ثم تكون الهزيمة النفسية لدى بعض الأوساط الدعوية والسياسية أو الثقافية والاجتماعية، وما علِم بعض هؤلاء المستهدفين أن هذا التخلي عن هذا المنهج لا يعود أن يكون تخلياً عن الإسلام بشكل أو آخر، ولعلَّ هذه الفقرات المتتابعة عن هذا الموضوع (5/5) تكشف عن بعض الحقائق التي قد تكون غائبة عن المستهدف بالهزيمة النفسية والفكريه بشكل خاص، كما تكشف عن طبيعة المنهج السلفي وقوته المقاومة فيه!! إضافة إلى أبعاد الهجوم الشرس وأسبابه.

الحرية الحقة قيمة كبرى في حياة المسلم، حيث لا تتعارض مع عبودية الله، بل إن عبودية الله هي الحرية، وأي ليبرالية تتمرد على العبودية لله الواحد الأحد مرفوضة في المجتمع المسلم، والتمرد على الأديان الذي حدث في الغرب نتيجة طبيعية للأديان المحرفة التي تصادم مع العقل وكراامة الإنسان وحقوقه المشروعة، بل قد تكون مبررة، والليبروصوفية تتجاهل أن الحرية الحقيقة هي التي لا تؤذ الآخرين في معتقدهم وثقافتهم، أو تلحق ضرر بهم، أو تصادر حرية الاختيار الصحيح لهم.

ولذلك، هل دعوة الليبرالية السعودية تجاوزوا حريتهم إلى انتهاك حريات وحقوق الآخرين في محاولاتهم مسخ هوية الوطن الإسلامي وببلاد الحرمين ورسالته من خلال التشويه المنظم للمنهج السلفي وما في ذلك من هدم ثوابت الإسلام وقيمه؟ وهل هم بهذا الاستهداف يدركون حقائق التاريخ وقيم الوحدة السياسية للأمة، ومن ثم حقيقة هوية الأمة الإسلامية؟

لقد هُوجمت السلفية أو المنهج السلفي في الإعلام الدولي والمحلّي بشكل غير مسبوق وكأن هذا المنهج ألم المصائب والعائق الأكبر عن الحداثة والتجديد والإصلاح والتطوير. يفعلون ذلك بخلط مُتعمّد بين المنهج - الذي هو الإسلام - وبين الممارسات الخاطئة في حقه من السياسيين أو الشرعيين، الذين قد يكونون أساوأوا إليه أكثر من خصومه. ففي محاولات التشويه الليبروصوفي قال أحدهم ممن فقد ذاكرته التاريخية عن العامل الرئيس في تأسيس الوطن السعودي ووحدته: «لم تُعد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب اليوم إلا عبئاً على الدولة السعودية»^[1]، وغير ذلك من الكلمات المتشنجـة، والأقوال في هذا لا تعد ولا تحصى^[2].

والقول السابق بأن السلفية عبء على الدولة وما شابهه من أقوال كثيرة يعكس أزمة نفسية وفكرية لدى الليبرالية في السعودية، فهل السبب أن المنهج السلفي يعد الأقوى في تحصين المجتمع من محاولات التغريب القسري الذي هو هدفهم؟ أم أن الخطاب «الليبروصوفي» بهذا يستهدف تغيير الهوية الوطنية للوطن السعودي من خلال تشويه الأساس الذي قامت عليه الوحدة الوطنية؟ أم أن هناك جهلاً عن حقيقة العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم - بغض النظر عن الممارسات الخاطئة - وأنه قائم على التوأمة بين السياسة والدين؟! ثم هل محاولات التجريد من الهوية الوطنية هي الوطنية التي يؤمن بها منتسبو الليبرالية ودعاتها؟!

لقد تجاوزت «الليبروصوفية» العداوة للمنهج السلفي إلى وصفه بالتعصب والجمود وعدم التسامح وأنه منهج يدعو لعدم

وحدة الأمة الإسلامية، كما وصفوه بما يُسمى «عدم الانفتاح على الآخر» مما هو مدون في مقالات هؤلاء، بالرغم من أن كتابات المنصفين من الغربيين وصفت هذا المنهج بعكس تلك المزاعم، بل أكدت أن هذا المنهج هو الأصل وهو الموحد للأمة، كما أنه المنهج المتميز بتأصيل التسامح سعياً لوحدة الأمة الإسلامية على عقيدة أهل السنة والجماعة، خلافاً لمناهج فرق الشيعة والخوارج والمعتزلة، حيث تعصب هذه الطوائف وغيرها وانشقاقها عن الأمة المسلمة وتمزيق وحدة الأمة.

وبهذا الصدد، كتب المفكر الفرنسي «شارل سان برو» عن دور المنهج السلفي في وحدة الأمة: «امتثالاً للمذهب السنوي السلفي، رأت الحنبلية أن ما ينبغي إعطاؤه الأفضلية هو وحدة الأمة والخير العام، لذلك كانت الحنبلية الموجودة في قلب مذهب أهل السنة والجماعة مذهب الوسط بين التفريط والإفراط المتناقضين، لقد حاربت العقائد التي أساءت فهم معنى تكافل الأمة والتسامح للذين يجعل الشريعة منها واجباً مفروضاً على كل مؤمن، وخلافاً للخوارج والمعتزلة وبعض الفرق الشيعية، لم تؤسس الحنبلية أيديولوجياً شمولية، فهي لم تؤدِ إلى العنف»[3].

كما سجل الباحث الفرنسي الآخر محمد ملين شهادته للمنهج السلفي، وتحديداً الذي قامت عليه الوحدة السعودية بأنه قادر على الانفتاح والإصلاح والتجديد دون التنازل عن ثوابته، والعجز ليس في ذات المنهج بقدر ما هو في جوانب الممارسات، وكتب ملين بعبارات أوضح عن انفتاح هذا المنهج الموصوف بالحنبلية والسلفية تارة، والوهابية تارة أخرى، فقال: «أقدم العلماء على بذلك جهود أيديولوجية كبيرة من أجل إنقاذ الأساسية في المذهب وفقاً لقاعدة الفقهية، التي تنص على مراعاة أخف الضررين، وكان أن قرروا بدعم وتشجيع من السلطة السياسية، الانفتاح على المذاهب السنوية الأخرى»[4].

وبما أن «الليبروصفوية» تعاهدت عملياً في خطابها الإعلامي على تشويه المنهج السلفي المتعدد عالمياً والسائد في المجتمع السعودي بكثير من الوسائل الإعلامية، فإن هذه الموضوعات الفرعية في هذا المقال ليست معنية بالرد على تلك الدعاوى والمزاعم بقدر ما هي معنية بكشف بعض الحقيقة عنها، كما أن هذا الموضوع لن ينتصر لهذا المنهج بأقوال أو مؤلفات أتباع المنهج السلفي أو علمائه – بالرغم من الأحقية في ذلك – لكن سيكون الاكتفاء باقتباس بعض الأقوال والاستدلالات من باحثين غربيين منصفين أمضوا السنوات العديدة للوصول للحقيقة، بل وتعلم بعضهم اللغة العربية لمعرفة حقيقة ما يثار عن الإسلام وعن المنهج السلفي تحديداً، وأكثر من ذلك أن بعضهم قاده الفضول المعرفي للوصول للحقيقة بسبب الحملات الشرسة المنظمة على السلفية ومنهجها.

(2) السلفية في منظور البحث العلمي الغربي:

استهدف المنهج السلفي – كما ورد سابقاً – كشف كثيراً من حقيقة الهجوم المنظم من «الليبروصفوية» داخلياً وخارجياً من الإعلام الغربي والإيراني لصناعة كثيرٍ من الفراغ الفكري والعقدي لمجتمعات أهل السنة والجماعة عموماً في العالم الإسلامي، والتركيز على إضعاف هوية المجتمع السعودي العقدية التي هي قدره في صناعة وحدته الفكرية وقوته السياسية، وصياغة منظومته الثقافية والوطنية، كما أن القراءة الصحيحة لمصطلح المنهج السلفي تكشف أكثر عن دوافع أعدائه وأهدافهم، ولذلك تأتي أهمية التحرير للمصطلح لتأكيد التوافق العلمي بين المصطلح والمفهوم، والفرق بين الحقيقة والزيف.

فمن خلال القراءة التاريخية في بعض المصادر، فإن المقصود بالسلفية أو المنهج السلفي هو: المنهج القائم على الكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة، ومن ذلك تقديم النقل على العقل لعدم تعارضهما، والمنهج السلفي بهذا المفهوم أكبر من المجتمع السعودي ودولته وعلمائه، وليس المقصود بالسلفية الواردة هنا: تلك الصورة النمطية التقليدية المشوهة من خصومها وأعدائها، أو من بعض أتباعها وأدعائها من بعض المحسوبين على العلم والعلماء، أو جماعات شرك الطاعة للولاية ومن في حكمهم. والقصور الموجود في الاجتهاد والتجديد، أو في الجوانب التطبيقية الخاطئة ليس ناتجاً عن قصور

المنهج بقدر ما هو ناتج عن ممارسات بعض أتباعه من الشرعيين والسياسيين، كما أن المستجدات العالمية والتحولات الثقافية لا تبرر طبعة جديدة للإسلام أو تفسيراً محكراً أو مشوهاً لقيمته ومبادئه وتشريعاته من أي جهة كانت.

ويتعرّض الإسلام بمفاهيمه العقدية والجهادية لهجوم فكري وإعلامي غير مسبوق تحت مسمى: التعصب، والتشدد، والجمود، والعنف، والإرهاب، ونسبة ذلك إلى المنهج السلفي، هروباً من المواجهة المباشرة مع الإسلام، ومقتضى العنوان في هذا الموضوع يتطلب الاقتصار على بعض النقولات من بعض الكتب الغربية عن المنهج السلفي ومدرسته – كما سبق – كما يقتضي الكشف عن الدعاوى والمزاعم من خصوم المنهج، وهم «الليبراليون والصفويون» وأسيادهم، وما بينهم من قواسم مشتركة في الأهداف.

فمن مصطلح السلفية أو مفهومها كتب المفكر الفرنسي شارل سان برو، في كتابه: «مستقبل السلفية بين الثورة والتغريب»، فقال: «حظيت كلمة سلفية salafisme بشهرة ما ليثت أن فقدتها نظراً للتحريف المذهب في معناها الذي وقعت ضحية له، فالملعون أن العودة إلى السلف الصالح أي صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ومن أتوا بهم مباشرة (القرون الثلاثة المفضلة) هي إحدى ثوابت السنة التي تستند إلى حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم (خيركم قرباني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[5]، هذا المستند موجود عند سائر مفكري أهل السنة والجماعة، أي الغالبية من السنة، إنها أحد مركبات الإصلاح الذي كان محمد بن عبد الوهاب أحد أهم رواده، لكن محمد عبد الوهاب هو الذي أطلق عبارة (سلفية) في القرن التاسع عشر، وبدأ الحديث عن مذهب سلفي شكلاً أحد مركبات الإصلاح والتقدم، والجدير ذكره أن المذهب السلفي ليس أيديولوجياً، بل منهجة، أي وسيلة لفهم الدين بالعودة إلى الأصول واستبعاد التفسيرات غير اليقينية والإضافات والخرافات، وأيضاً عوامل الجمود التي تراكمت عبر الزمن، فالسلفية التي لا تنفصل عن الإصلاح وعن ممارسة الاجتهد ونبذ التقليد الأعمى، هي ضمان للأصالة وصفاء المنشأ والتقييد بأصول الإسلام، ولا علاقة للسلفية بأي تطرف، ولا حتى بالنزعة المحافظة»[6].

كما قال في موضع آخر: «وإذا كانت عبارة (سلفي) تعبر أكثر عن ميل نحو السلفية وبعض الانكفاء نحو الماضي، فإن السلفي هو الذي يعرف السلفية والنصوص والأخبار والعقيدة والمعارف المتوارثة عن الأسلاف الأقدمين، إنه عارف مطلع يرنو لأن يعيش السلفية وأن يعمل على نشرها، ناسجاً علاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل»[7].

إن القضية الرئيسية عند «الليبروصفوية» ليست سوى محاولات إسقاط الثوابت والمنهج السلفي تحديداً من عيون أتباعه ومؤيديه وأنصاره، فهو المنهج الذي يحيّن المجتمعات من التغريب، ويقوى مناعتتها أمام الأطماء الأجنبية، بل إنه الحصانة الفكرية والسياسية أمام التوسع الإيراني المعلن الذي يستهدف السيطرة على الحرمين الشريفين بدون تُقْيَة من أصحاب هذا المشروع، وبالتالي تفتت الوحيدة السياسية في كل دولة إسلامية، وبالذات في الحرميin بشكل خاص[8].

فالمنهج السلفي هو الهوية الوطنية الفكرية للوطن السعودي، والتعاون الليبرالي الصوفي على هذه الهوية لا يقل عن التعاون الليبرالي الغربي في عمليات التغريب القسري.

بعد هذا العرض اليسير عن المصطلح ومفرداته ومعانيه، وعن هوية المجتمع المسلم بشكل عام والمجتمع السعودي بشكل خاص حيث قدره، هل تكون المهزيمة النفسية أو الفكرية من هذا المصطلح كما يريد الخصوم؟! وهل بعد هذا يكون الخجل من الانتماء إلى السلفية أو المنهج؟! وهل بعد وضوح المصطلح ومفاهيمه يكون الاعتزاز بهذا المنهج – على المستوى الرسمي وغيره – الذي يحفظ للمسلمين هويتهم ووحدتهم وسيادتهم واستقرارهم؟!

كتب هنري كوبان في تعليقه على كتاب شارل سان برو «مستقبل السلفية بين الثورة والتغريب»[9] عن حقيقة السلفية وعلاقتها بالتطرف، ودورها المقلق لعدوها في مقاومة التغريب، وكان مما قال كوبان: «يوضح المؤلف أن السلفية الإسلامية تشكل أفضل رد على الانحرافات المتعصبة والمتطرفة، وعلى التغريب الذي أدى إلى إنكار الحضارة الإسلامية، وبين الثورة والارتباك تُشكّل السلفية التي تنبع بالحياة تعبيرًا عن إسلام يجب أن يسعى إلى التوفيق بين الإيمان بالعقيدة الثابتة ومظاهر التطور، وذلك عبر ممارسة الاجتهاد الذي يشكل مبدأ الحركة في بنية الإسلام»[10].

الباحث الأكاديمي الدكتور «شارل سان برو» وهو المؤرخ الفرنسي المتخصص في العلوم السياسية ومدير مرصد الدراسات الجيوسياسية في باريس والأستاذ في كلية الحقوق قد دون بعض الحقائق في كتابه: «مستقبل السلفية بين الثورة والتغريب» عن مزاعم التطرف في الفكر السلفي، وكان مما قال: «إن الادعاء بأن السلفية تؤدي إلى التطرف، أو أنها متطرفة هو قول مغلوط، لقد استخدم الراديكاليون المتطرفون، والثوريون والخوارجيون، - دون وجه حق - عبارة خاصة بالسلفية السنوية المستقيمة، في حين أن مراجعهم الأيديولوجية الحقيقة مختلفة تماماً»[11].

وعن حقيقة السلفية (المنهج السلفي) ودورها البارز في الإصلاح والتطوير ومواجهة الانحرافات كتب برو: «منذ أكثر من قرنين راجت التحليلات والروايات غير الموضوعية التي تناولت المنهج السلفي، ولا بد من الاقتناع بأن شيخ نجد [محمد بن عبد الوهاب] قد أقضى موضع كثير من الناس الذين وصل بهم الأمر إلى هذا الحد من العداء له، لكنه هو الذي جَدَّ السلفية في مواجهة الانحرافات الأكثر خطورة، والذي أطلق الإصلاح الذي يحتاج إليه الإسلام، وكى نفهم بصورة أفضل هذا الرجل الذي ما انفك مجھولاً من جانب كبار العاملين في التاريخ، يجب بادئ ذي بدء الاهتمام بالعديد من أحداث حياته، ومن ثم يجب الاستناد إلى أعماله التي تُعد بكل بساطة أعمالاً مفكراً سلفياً وإصلاحياً»[12].

وبما أن عقيدة الليبروصفوية مع السلفية (المنهج السلفي) هي الزعم بعدم قدرتها على مواكبة التطوير والتحديث والإصلاح - كما يَدَعون - فإن الدكتور شارل برو وصفها بعكس ذلك تماماً من خلال الشرح والتحليل عن تجربة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، وأكَّد أنها تتضمن قيم الإصلاح وعوامل النهضة، وعنها كتب تحت عنوان: «أصول الإصلاح» فقال: «وكان شيخ نجد محمد بن عبد الوهاب رائد المذهب الإصلاحية، قد استعاد بأسلوبه الخاص وفي سياق تاريخي واضح جداً الأصول الأساسية للسلفية، وأعطى زخماً جديداً للإسلام الذي كان غارقاً في سبات عميق، ورغم الخصوم الأقوياء الذين حاربوا هذه الحركة الإصلاحية، فمن الثابت أن تأثيره كان هائلاً نظراً لكونه في أساس يقظة الإسلام وتجدد»[13].

وعن النهضة الفكرية والثقافية لدعوة المُجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وما فيها من الحداثة والتحديث، ومقاومة التغريب، والتحسين من مخاطر التعديدية الفكرية التي تؤدي إلى إضعاف مناعة الأمة وحضارتها وتفكيك قوة الوحدة السياسية والوطنية أو الإجهاز عليها، كتب برو: «يمكن عَدَّ محمد بن عبد الوهاب رائداً لحركة الإصلاح في الإسلام؛ لأنَّه طرح مسبقاً تساؤلات طورها لاحقاً أولئك الذين أطلقت عليهم تسمية إصلاحيين وأحياناً حداثيون، وبعيداً عن كونه مذهبًا جديداً، تحدد فكرة محمد بن عبد الوهاب بأنها حركة إصلاحية: (تنتمي الوهابية إلى جملة الإصلاحات الإسلامية التي شهدتها القرن الثالث عشر الميلادي) أي أن هذه الإصلاحات التي كانت إذا صحت القول بالنسبة إلى الإسلام هي ما تشبه عصر النهضة بالنسبة إلى أوروبا (العودة إلى الأصول)»[14].

ويؤكد الباحث نفسه عكس ما يُثار عن الحنبلية والسلفية ومزاعم الجمود الفكري لدى المنهج السلفي بقوله إن السلفية الحنبليَّة تظهر وقت الأزمات، فيقول نافلاً عن المستشرق «لاوست»: «الإسلام السلفي يعد مذهبَه مكوناً جوهرياً في الثقافة

الإسلامية، ومع الرغبة في الحسبان (أن المذهب الحنفي بشخص مؤسسه وأهم أتباعه أصبح أحد العناصر المكونة للثقافة الإسلامية)، وأصبح من الضروري التعرف بشكل أفضل إلى فكر ابن حنبل الذي كان له تأثيره على العديد من المثقفين والمفكرين وال المسلمين، وبخاصة الطليعيين كالشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأهم رواد التيار الإصلاحي الذي اشتهر في نهاية القرن التاسع عشر»[15].

ويؤكد برو افتتاح السلفية (المنهج السلفي) - عكس مزاعم الليبرو صفوية - حينما قال عنها: «السلفية خير تعبير عن وسطية الإسلام وقدرته على التوفيق بين الإيمان والافتتاح».

كما تقول الباحثة الأمريكية «ناتانا دي لونج باس» عن الحوار والمناظرة في المنهج السلفي السياسي: «دعا محمد بن عبد الوهاب إلى المناظرات والحوار أكثر مما دعا إلى العنف وال الحرب، لأن الحوار هو الطريقة المثلثة للتعامل مع هؤلاء، آمن بقيمة الحوار والمنطق الأكثر إقناعاً من الحرب»[16].

من خلال ما سبق من اقتباسات يتأكد أن الصاق تهم التشدد والتکفير والظلامية ومنبع الإرهاب بالسلفية أو المنهج السلفي، تحت أي مسمى كان له أجندته الخفية والظاهرة، حيث إن هذه المزاعم تصب بشكل مباشر وغير مباشر في هدم المشروع الأساس للأمة المتمثل بوحّدتها الفكرية، وهذا يعد جنائية بحق الوحدة الفكرية للأمة أو المنهج السلفي، وهو وبالتالي يعد خدمة لأعداء رسالة الوطن، فتنتهي وحدته الفكرية إضعافاً لأساس وحدته السياسية، ومن المسلمات أن أي أمة تفقد هويتها العقدية ووحدتها الفكرية يسهل توجيهها، وتقوى فيها السيطرة للوافد الفكري سواء على الفرد أو على المجتمع والدولة.

فحسب ما سبق فإن استهداف السلفية ومنهجها ورموزها عبر القرون هو في حقيقته استهداف للإسلام ذاته القائم على منهج الكتاب والسنة، فالسلفية منهج في الاستدلال - كما سبق - تتشارك في هذا المنهج جميع جماعات أهل السنة والجماعة، والاستهداف لهذا المنهج بانتقاد رموزه التجددية والإصلاحية مثل ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب مما يؤكّد حقيقة المشروع العالمي «الحرب الصليبية والصفوية الحديثة» لإيقاف مدّ الإسلام وانتشاره وانتصاره، ولكن الله وعد ووعده الحق كما قال تعالى: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 21].

(4) الإسلام السياسي والإسلام المرفوض:

العقيدة والسياسة توأمان في المنهج السلفي لا ينفك أحدهما عن الآخر، بل بما الهوية الحقيقة لأي دولة إسلامية، وتتأكد هذه التوأمة لأي دولة في جزيرة العرب، حيث لا خيار غير الإسلام على منهج السلف الصالح، وهذا المنهج هو الهوية الحقيقة لبلاد الحرمين (السعودية) بغض النظر عن أي ممارسة خاطئة في حقه، كتب المفكر الفرنسي «د. شارل برو» عن الإسلام السياسي[17] وأهمية الحسبة - وهو عدوان لدوستان للمشروع الليبرو صوفي التغريبي - في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حيث ظلت الدولة السعودية من رحم الدعوة السلفية، وكان مما قال: «أما بالنسبة إلى محمد بن عبد الوهاب فكان الأمر يتعلق بإصلاح العلاقة بين السياسي والديني، أي بإعادة بناء دولة إسلامية حقيقة تقوم على أسس سليمة، تطبق الشريعة المقدسة، وتحرص على أن يسود العدل، وتعمل على تشجيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبقاً للشريعة العامة الإسلامية السلفية، وكان لا بد من ترجمة ذلك إلى وقائع، والحال هذه كانت تنتشر فيسائر أنحاء المنطقة تقريراً عادات غريبة وطقوس خرافية ومعتقدات تناقض العقل والدين»[18].

ولهذا فإن المزاعم تسقط حينما تكون الحكومة أو المحاكمة لها المنهج على التشريعات البريئة من الممارسات الخاطئة بحق المنهج.

فعقيدة المنهج السلفي قائمة أصلًا على السياسة الشرعية التي تقوم على سيادة الأمة وحريتها من الرّق، وهذه السيادة هي ما يُسمى اليوم على سبيل النّم «الإسلام السياسي»، وبما أنّ هذه العقيدة – التي شوهرها كثيرون من الممارسات السياسية – تقوم على استقلالية الأمة الإسلامية، وترسّخ مبدأ السيادة للأمة والقيادة الذاتية والحرية من التبعية الشرقية أو الغربية، فقد واجه هذا المنهج الهجوم الشرس والتشویه من «الليبروصوفية» وأسيادهم لإطفاء نور حقيقة وجواهر الإسلام كما قال أحد المفكرين: إن إسلام الشعائر التعبدية من صلاة وصوم وحج وعبادات وزهد ليس معنًيا بعداوة الأعداء، لكن الخصومة الحقيقية للإسلام هو الذي ينزعهم السلطة أو السيادة في توجيه العالم وبنائه على مثاليات و«قيم أخرى لا يؤمن بها الغرب».

ولهذا الاعتبار استحدث الغرب وتبعهم ليبراليو العالم العربي ودعاة الليبرالية السعودية مصطلح «الإسلام السياسي» عن أهل السنة فقط بصورة التشويه والتنفير، بالرغم أنه يعني السيادة والاستقلال السياسي – كما سبق –، وقد عَبَر عن هذا الواقع الدكتور مصطفى محمود – رحمه الله –، وكان مما قال: «حينما يصرّح الساسة في الغرب بأنهم لا يعادون الإسلام، وأنهم ليسوا ضد الإسلام كدين، فإنهم يكونون صادقين بوجه من الوجه.. إذ لا مانع عندهم أبداً من أن نصلّي ونصوم ونحو ونقضي ليتنا ونهارنا في العبوديّة والتسبيح والابتهاج والدعاء.. ونقضي حياتنا في التوكّل، ونعتكف ما نشاء في المساجد، ونوحد ربنا ونمجده ونلهل له، فهم لا يعادون الإسلام الطقوسي.. إسلام الشعائر والعبادات والزهد.. ولا مانع عندهم في أن تكون لنا الآخرة كلها. وهذا أمر لا يفهم.. ولا يفكرون فيه.. بل ربما شجعوا على التصوف والاعتزال وحالفوا مشائخ الطرق الصوفية ودافعوا عنهم.. ولكن خصومتهم وعدائهم هي للإسلام الآخر.. الإسلام الذي ينزعهم السلطة في (توجيه العالم وبنائه على مثاليات وقيم أخرى).. الإسلام الذي ينزعهم الدنيا ويطلب لنفسه موقع قدم في حركة الحياة.. الإسلام الذي يريد أن يشق شارعاً ثقافياً آخر... ويرسي قياماً أخرى في التعامل ونماذج أخرى من الفن والفكر.. الإسلام الذي يريد أن يتنهض بالعلم والاختراع والتكنولوجيا.. ولكن لغايات أخرى غير التسلط والغزو والعدوان والسيطرة.. الإسلام السياسي.. الإسلام الذي يتجاوز الإصلاح الفردي إلى الإصلاح الاجتماعي والإصلاح الحضاري والتغيير الكوني، هنا لا مساومة، ولا هامش سماح. وإنما حرب ضروس.

هنا سوف يطلق الكل عليك الرصاص!! وقد يأتيك الرصاص من داخل بلدك الإسلامي نفسه!!

النمط الغربي للحياة تحول الآن إلى قلعة مسلحة ترفض أي منافس أو بديل.. والصدام هو قدر كل من يحاول أن يخرج بالإسلام من دائرة المسجد ويسعى به خارج التّكية الصوفية»[19].

ولذلك فإن الإسلام المرفوض هو ما يُسمى الإسلام السياسي اليوم، والمقصود بتوضيح أكثر عن الإسلام السياسي: أن يكون الدين الإسلامي بعقيدته وشرعيته هو المحرك الرئيسي والضابط للحاكم والمحكوم، والإسلام السياسي: أن تكون الشريعة الإسلامية لها الحاكمية المطلقة على الجميع في جميع شؤون الحياة.

وبما سبق فإن الإسلام السياسي يُصبح صفة مدح وثناء للمؤمنين بتطبيق الشريعة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً[20]، وقد استخدم المصطلح للذم من قبل بعض الحركات العلمانية المعادية للمؤمنين بتطبيق الشريعة، بل استخدموه وسيلة انتقاد واستدعاء، وربط بعضهم ذلك بما يُسمى «ولاية الفقيه» عند الشيعة للتنفير من الحاكمية السياسية الشرعية السنوية للشريعة الإسلامية، خلافاً للإسلام السياسي الشيعي وأيديولوجيات ولاية الفقيه وتصدير الثورة، فهي لا تدخل ضمن هذا الهجوم المنظم.

وقد عَرَفَ بعض الباحثين هذا المصطلح بقوله: «مصطلح سياسي وإعلامي وأكاديمي استخدم لتوصيف حركات تغيير

سياسية تؤمن بالإسلام باعتباره نظاماً سياسياً للحكم». ويمكن تعريفه وبالتالي: «مجموعة من الأفكار والأهداف السياسية النابعة من الشريعة الإسلامية والتي يستخدمها مجموعة (المسلمين الأصوليين) الذين يؤمنون بأن الإسلام ليس عبارة عن ديانة فقط، وإنما عبارة عن نظام سياسي واجتماعي وقانوني واقتصادي يصلح لبناء مؤسسات دولة»[21].

(5) الوهابية بعيون غربية:

كتبت الباحثة الأمريكية «ناتانا دي لونج» عن إحدى الفروع الغربية الحديثة، ومنها السلفية وما يُسمى بالوهابية، مما يكشف عن الحقيقة، فقالت بحيادية علمية بعد أن قادها الفضول العلمي للوصول إلى الحقيقة: «بعد الحادي عشر من سبتمبر تُعرف (الوهابية) من قبل الحكومات، والمحالين السياسيين، ووسائل الإعلام بأنها (التهديد الإسلامي) الرئيس الذي يواجه الحضارة الغربية، وبأنها مصدر إلهام أسامة بن لادن وشبكة القاعدة التابعة له، وقد أصبحت ذات سمعة سيئة نتيجة تأثيرها السلبي في الإسلام والجوامع والمدارس على نطاق عالمي، وهي توصف بأنها راديكالية متطرفة تزدري الطابع العصري، وتكره النساء، وذات طبيعة قتالية، وقد وصفت بأنها ذات نظام إسلامي فاشي يتبع تقاليد الشيوعية والنازية. وتُتهم بأنها تلهم التطرف الديني القاتلي لحركات تمتد منطالبان إلى من يطلق عليهم اسم (الوهابيين) في آسيا الوسطى وشبكة القاعدة التابعين لأسامة بن لادن، وهي قد جعلت هدفاً في أنها أكثر تزاماً بين جميع تفاسير الإسلام، وتسعى إلى فرض نفسها وحدها بصفتها المعتبرة عن الإسلام الحقيقي، ويشار إلى أن التعاليم (الوهابية) في الأغلب على أنها (خطاب متعصب)، ويطلق على (الوهابية) نفسها صفة (التعبير الأكثر رجعية عن الإسلام)، وإحدى أكثر الحركات الإسلامية خوفاً من الأجانب»[22].

وكانت دوافع الفضول لدى هذه الباحثة الأمريكية بسبب الصور النمطية السلبية عن السلفية والوهابية والأصولية الإسلامية بحسب التعبيرات الغربية باعثاً للبحث عن الحقيقة لتلك الصور النمطية خاصةً عن محمد بن عبدالوهاب وتراثه، ففي رسالتها العلمية (الدكتوراه) من جامعة «جورج تاون» توصلت إلى نتائج عكسية، ومما قالت عن نتائج بحثها في مقابلة صحفية معها: «ووجدت الاعتدال والعقلانية والعمل العلمي المؤصل في ثروة ابن عبدالوهاب العلمية... من الأعمال العلمية المغلوطة والمليئة بالكذب بما مرجعية الغرب عن فكر الشيخ ابن عبدالوهاب لقد قالوا لي: إن رسالة التوحيد لابن عبدالوهاب (بيان حرب)!!... لم أر أي شيء ينم عن العنف في هذه الرسالة على الإطلاق، بل كلام علمي معقول عقلاً لا لبس فيه ولا غموض...»[23].

وعن الوهابية، وأنها ليست مذهبًا خاصًا كما يطلقه بعض الخصوم، وإنما هي مذهب أهل السنة والجماعة ومصدر نهضتهم ومجدهم، كتب الباحث الأمريكي «لوثروب ستودارد» فقال: «محمد بن عبدالوهاب الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت، واتقدت، واندلعت ألسنتها إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي... أخذ هذا الداعي يحضر المسلمين على إصلاح النفوس، واستعادة المجد الإسلامي القديم والعز التليدي».

كما كتب الباحث نفسه عن حقيقة الحركة الوهابية ودورها الإصلاحي العالمي، فقال عنها: «بدأت اليقظة الكبرى في عالم الإسلام، فالدعوة الوهابية إنما هي دعوة إصلاحية خالصة بحثة غرضها إصلاح الخرق، وفسخ الشبهات وإبطال الأوهام ونقض التفاسير المختلفة وال تعاليم المتضاربة التي وضعها أربابها في عصور الإسلام والأخذ به على أولئه وأصله ولبابه وجواهره...»[24].

وتكشف الباحثة الأمريكية «ناتانا دي لونج» الستار عن مدى الصورة النمطية عن محمد بن عبدالوهاب وعن الدولة التي قامت على دعوته من خلال قراءتها لجميع تراث ابن عبدالوهاب - كما قالت -، فتقول: «كان محمد بن عبدالوهاب - كما

يظهر في أعماله المكتوبة – عالماً وفقاً لحسن التدريب وواسع التجوال، إضافةً إلى كونه كاتباً كثيراً للكتابة والإنتاج، وتملاً لأعماله المكتوبة الموجودة أربعة عشر مجلداً ضخماً، تتضمن مجموعة من الأحاديث، وسيرة حياة النبي (صلى الله عليه وسلم)، ومجموعة من الفتاوى، وسلسلة من التعليقات التفسيرية للقرآن الكريم، وعدة مجلدات في الفقه، وعدداً من الرسائل الدينية، وغيرها من الأعمال المتنوعة التي تتضمن مناقشات مفصلة عن الجهاد ومكانة النساء، إن مجال معرفته يقف على مضارعٍ واضحة لفتاوي القليلة التي أصدرها أسامة بن لادن، والأكثر أهمية إن إصراره على التمسك بالقيم القرآنية، مثل المحافظة القصوى على الحياة البشرية حتى في وسط الجهاد بصفته حرباً مقدسة، والتسامح مع الأديان الأخرى، وتأييد توازن الحقوق بين الرجال والنساء يؤدي إلى نظرة شاملة مختلفة جدًا عن نظرة المتطرفين القتاليين المعاصرین، إن غياب الخوف من الأجانب، والنزعة القتالية، وكراهية النساء، والتطرف، والحرافية المرتبطة على نحو نموذجي بالوهابية، كلها تثير أسئلة جدية عن كون مثل هذه الأفكار (متلازمة) هي والوهابية»[25].

الباحثة الأمريكية «ناتانا دي لونج باس» في بحثها – سابق الذكر – عن حقيقة دعوة محمد بن عبدالوهاب وتراثه كشفت في مقابلة صحافية عن حقيقة الدعوة، وأن الاستهداف يتم من خلال محاولات تشويه رموز التجديد والإصلاح وحقيقة دعوتهم، ومما قالت: «توقعنا أن أجدهم الكثير من المواد في كتب الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي تشجع على العنف وتدعى إلى الجهاد وتصنف كل من ليس بوهابي على أنه كافر وهذا ما لم يكن، حالماً قرأتُ كتاب التوحيد تغيرت توقعاتي، لقد أدركت أن معظم الناس قد أساووا فهم هذه الرسالة على أنها (بيان حرب)، لقد كان كتاب التوحيد حقاً بحثاً مستفيضاً في مضمون التوحيد، كان عملاً علمياً رصيناً هادئاً، وليس دعوة إلى الحرب، وعند قراءة الكتاب في سياق جميع كتابات الشيخ يبدو واضحاً أنها عبارة عن رسالة في الإلهيات تناقش مسؤوليات جميع المؤمنين، وكذلك موضوع الجهاد والزواج والمرأة فقد سقطت عندي الصورة النمطية التي تشاء عن الوهابيين... ابن تيمية هو الآخر ظلم وكذب عليه ولم يقل شيئاً من ذلك... لعل ما أصاب ابن تيمية هو مماثل لما أصاب ابن عبدالوهاب من ظلم وكذب وتحريف»[26].

كما كتب غيرهؤلاء عن حقيقة هذه الدعوة فقال عنها المستشرق (بركارت): «لم تكن المبادئ التي جاء بها ابن عبدالوهاب مبادئ دين جديد، وإنما كانت جهوده منصرفة إلى إصلاح ما فسد من معتقدات المسلمين»[27].

وكتب كبير المستشرقين «جلد سيهر»: «إن الوهابيين أنصار للديانة الإسلامية على الصورة التي وضعها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، فغاية الوهابية هي إعادة الإسلام كما كان»[28].

وبما سبق من حقائق في هذا المقال ينكشف سر الهجوم المنظم على الهوية الحقيقية لأي مسلم من قبل دعاة الليبرالية والصفويين (الليبروصفوية) بقاسم مشترك، وهو إضعاف أو إسقاط مصدر الوحدة الفكرية للأمة الإسلامية، وهو ما يتفق مع المشروع الصهيونأمريكي القائم على عداوة منهج أهل السنة والجماعة والإجهاز على أي مشروع سيادي للأمة، لأن المنهج السلفي المنشود قادر على الإصلاح والتطوير، بل واستيعاب الحداثة والتحديث، ومقاومة التغريب، والتحصين من التعددية الفكرية التي تؤدي إلى إضعاف الوحدة السياسية للأمة أو تمنع قيامها، فالمنهج السلفي بديل حضاري؛ لنهضة الأمة الإسلامية، يؤدي إلى سيادتها وريادتها، وهذا من أبرز أسباب الخصومة والاستعداء المحلي والعالمي. وبالله التوفيق.

[1] انظر على سبيل المثال صحيفة الجزيرة السعودية، بعنوان: «المسكوت عنه: السلفية على فراش الموت»، للكاتب الدكتور: حمزة السالم، العدد 14959، بتاريخ 14/11/1434هـ.

[2] انظر للمزيد عن هذه الأقوال الكتاب القيم للشيخ خليفة بن بطاح الخزبي: «الليبراليون الجدد – الواقع المحلي» المحور الأول: الانحرافات العقدية، الفصل الأول.

- [3] انظر: الدكتور شارل سان برو، «الإسلام – مستقبل السلفية بين الثورة والتغريب»، ص 163.
- [4] انظر: د. محمد نبيل ملين «علماء الإسلام – تاريخ وبنية المؤسسة الدينية في السعودية بين القرنين الثامن عشر والحادي والعشرين»، ص 207، ترجمة: محمد الحاج سالم، وعادل بن عبدالله، الطبعة الأولى 2011م. نشر الشبكة العربية للأبحاث والنشر – بيروت.
- [5] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، حديث رقم: (6428).
- [6] انظر: شارل سان برو. «مستقبل السلفية بين الثورة والتغريب»، ص 424.
- [7] انظر المصدر السابق ، ص 147.
- [8] انظر مقال صحيفة الرياض: «أبعاد مشروع أم القرى المزعوم»، د. حمد اللحيدان، على الرابط التالي: <http://www.alriyadh.com/863442>
- [9] كتاب برو هو: «عن حقيقة السلفية وتاريخها العريق ودورها في مقاومة التغريب والتطرف»، وطبعته مكتبة الملك عبدالعزيز بالرياض (حوالى 500 صفحة)، وهو كتاب وثائقى ودراسية تحليلية بنتائج باهرة من شخصية لا تنتمي لهذا الدين، عدا عن الانتماء للمنهج الذى قام بالبحث فيه وعنده، ولذلك يُنصح بقراءاته.
- [10] انظر شارل سان برو، «مستقبل السلفية بين الثورة والتغريب»، ص 13، ترجمة: وجيه جميل البعيني، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض – السعودية، 1431هـ/2010م.
- [11] انظر المصدر السابق، ص 425.
- [12] انظر المصدر السابق، ص 239.
- [13] انظر المصدر السابق، ص 214.
- [14] انظر المصدر السابق ، ص 267.
- [15] انظر المصدر السابق ، ص 147. نقلًا عن: لاوست هنري، LAOUST Henri.
- [16] انظر: ناتانا دي لونج باس. «دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب – من الإحياء والإصلاح إلى الجهاد العالمي»، ص 185.
- [17] يقصد بـ«الإسلام السياسي» في لغة الغرب: الإسلام الذي يعتقد معتنقوه أنه يحكم الشؤون السياسية من الحياة، أو أن الإسلام دين ودولة.
- [18] انظر: شارل سان برو. «مستقبل السلفية بين الثورة والتغريب»، ص 247.
- [19] انظر مصطفى محمود – رحمة الله – «الإسلام السياسي والمعركة» ص 17 ، 18 .
- [20] أدرك الملك عبدالعزيز أن الإسلام السياسي هو الموحد الحقيقي للدولة السعودية، كما هو محمد بن عبدالوهاب و محمد بن سعود.
- [21] انظر: الموسوعة الحرة، على الرابط التالي: <http://4i.ae/SWsO>
- [22] انظر: ناتانا دي لونج باس «دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب – من الإحياء والإصلاح إلى الجهاد العالمي»، ص 29-30؛ ولها مصادرها التي ذكرتها في أصل الكتاب، ترجمة د. عبدالله بن إبراهيم العسكر، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض – السعودية، 1433هـ.
- [23] انظر: المقابلة الشخصية، صحيفة الرياض، العدد 16236، بتاريخ 1434/2/20هـ، عن كتابها بالطبعة العربية بعنوان: «دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب – من الإحياء والإصلاح إلى الجهاد العالمي» نشر دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1433هـ، على الرابط التالي: <http://www.alriyadh.com/2013/01/02/article797986.html>
- [24] انظر: محمد بن عبدالله بن حمد السكاكير. «الإمام محمد بن عبدالوهاب – حياته – آثاره – دعوته السلفية»، ص 287-288، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض – السعودية، 1434هـ/2013م. نقلًا عن: «حاضر العالم الإسلامي»، تعریف الأستاذ عجاج نویہض، ج 1: ص260، طبعة دار الفكر.
- [25] انظر: ناتانا دي لونج باس. «دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب – من الإحياء والإصلاح إلى الجهاد العالمي»، ص 34.
- [26] انظر عن المقابلة الشخصية كاملة صحيفة الرياض، العدد 16236، بتاريخ 1434/2/20هـ، عن كتابها بالطبعة العربية بعنوان: «دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب – من الإحياء والإصلاح إلى الجهاد العالمي»، على الرابط التالي: <http://www.alriyadh.com/2013/01/02/article797986.html>
- [27] انظر: محمد بن عبدالله بن حمد السكاكير «الإمام محمد بن عبدالوهاب – حياته – آثاره – دعوته السلفية»، ص 289. نقلًا عن: «تاريخ البلاد السعودية»،

[28] انظر المصدر السابق، ص 290. نقلًا عن: كتاب: «بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب»، ج 1 ص309، وكتاب «العقيدة والشريعة» جلد سيهـ.